

و هي درجة حرارة عالية جدا بالنسبة لموسكو. و كذلك السفير الإيراني الجالس قبالي في حلة رسمية سوداء. و السهل منبسطة تتناثر فيه شجيرات متباعدة ذات قمم أشبه بالمظلات. و الجبال ترتفع عن بعد رمادية صفراء. تلك ليست المرة الأولى التي ينصب فيها مخيم السلطان هنا، و كان من المعتاد أن يتوقف السلطان في سياق جولاته الدورية في ربوع البلاد ليستقبل المواطنين و يخطب فيهم و يتجاذب أطراف الحديث مع البعض منهم. حيث يصلون الى هنا في غضون ثلاث ساعات يمضونها و سياراتهم تنهب الطريق ارائع الذي يشق سلسلة الجبال الى الجهة الثانية، و لعل هذه البقاع تدفع المرء الى التأمل و التفكير، التي ترد عن طريقها ملايين الاشارات التي تحمل معلومات و أخبار عن العالم الكبير الذي يموج بالأحداث و تمكن المسؤولين من جس نبض الحياة المستقرة في البلاد. و عبر شبكة أنابيب النفط المتشعبة التي تشكل الدورة الدموية لاقتصاد السلطنة تضخ الملايين من براميل الوقود السائل و عبر الأسلاك النحاسية تنساب في صمت مئات الآلاف من الكيلوواط الطاقة الكهربائية التي تمنح القوة و الحيوية للآلات و المضخات، و هي تزود المساكن و الحقول بالحياة، و تقف أسراب الطائرات و الدبابات و المدرعات المعتادة في صفوفها على أهبة الاستعداد و قد تحولت الى قبضة متينة تجمعها ارادة واحدة. ان كل امكانات الدولة العصرية اليوم طوع بنان رجل واحد يجلس متأملاً متربعا على بساط في خيمته الفسيحة الحمراء. و خطط استخدام شبكة الانترنت على أوسع نطاق، و مد أنبوب الغاز في قاع المحيط الهندي. و اكتست صفحة السماء في الغرب باللون الذي شبهه الكاتب كنوت هامسون بلون شريحة السلمون. التي تبدو كأن الرماد قد نثر عليها، و كانت السماء مزينة بألوانها الشبيهة بانعكاس لهيب الموقد على النصال و لمعة الذهب السحرية على أساور النساء. و خيل الى من كلامه السريع غير المفهوم أن أحدا من الجالسين سيدعى للمثول أمام السلطان. سيارة الجيب تنزلق ببطء على الدرب المتموج غير المعبد و تلقي بأضواء مصباحيها نورا على الفضاء الصخري المكسو بشجيرات متباعدة. لكنها واصلت طريقها وسط الظلام مهتدية بأنوار مصابيح أخرى تومض من بعيد. شد السلطان يدي بود. و انطبعت على شفثيه ابتسامة خفيفة. ما أبعد الشبه بينه و بين مئات الصور الفوتوغرافية التي كنت أصدق فيها بانتباه على صفحات الكتب و المجلات و الجرائد. انه أكثر فتوة من كل تلك الصور بعشر سنوات في أقل تقدير. و حضور البديهة و لمع العينين و نبل الایماء و الالتفاتة و الإیحاء. جلسنا على مقعدين خفيفين. و ليس بيننا سوى طاولة مستديرة صغيرة. أثناء الحديث كان السلطان يومئ برأسه و يشير بيده اليمنى بين الفينة و الفينة. لكنها تنطوي على طاقة خفية موحية. و في هيئة جلوسه و أسلوب كلامه تعبيرات ابتسامته ألف دليل على منتهى التحرر و مطلق الحرية. ولا أصدق من كلمتي بساطة الملوك للتعبير عن خاصية هذا الأسلوب و هذا السلوك. فلا يجلس على هذا النحو الا الرجل الذي تربع أجداده على العرش مائتي عام. و لم أكن قد رأيت مثل هذا القوام الا على جدران معابد مصر. بهذه الصورة خلد نحاتون مجهولون كل الفراعنة من ملوك الأسر التي حكمت مصر آلاف السنين. انتقل الحديث بشكل غير ملحوظ من سني الطفولة الى الفترة التي أمضاها صاحب الجلالة في الدراسة و الخدمة العسكرية، الا أن هذه المعلومات لا تقاس بمعيار الكم. فالأهم هو أن أكداس المعلومات التي استقيتها من الكتب و الجرائد و المقابلات و المصادر الأخرى أخذت تتجمع و تتركب و تستقيم في منظومة قديمة واحدة. وجدت في لهجة السلطان الصادقة الدافئة حين كان يتكلم عن أعزائه من عمالقة الروح الانساني و عن القيم الأخلاقية و عن نوعية التعليم اكثر بكثير مما تتضمنه المجلدات المخصصة لسياسته في ميدان التربية و الثقافة. و الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصور سياسيا في روسيا أو في بلد آخر تكون المعاناة الموسيقية بالنسبة له على القدر نفسه من الأهمية شأن تقلبات اللعبة على رقعة الشطرنج العظمى التي يباذرها الجيش و رموز القدرة الاقتصادية. ذلك هو بالذات المظهر الواضح لتفوق النظام الملكي. فمن تحت الأكوام التي تعترض الطريق الى قمة السلطة في عالم الديمقراطية المعاصرة لن ينهض شخص يقيم نفس الوزن لمسائل صيانة الوثام الهش في الطبيعة و لمهمات تصعيد القدرات الحربية. و أترك هنا جانبا الصفوة الحاكمة التوتاليتارية الاستبدادية المكونة عادة من أناس تسلقوا القمة بفضل مهارتهم في الجمع بين عقل العبد و الطاغية و سلوكهما في وقت معا. لقد طرح السلطان قابوس مهمة تشذيب لوحة بلاده و تهذيب صورة دياره. وفي وثائق الحكومة العمانية المترجمة الى الانجليزية يطلق على هذه العملية مصطلح التجميل. و بالروسية يمكننا أن نستخدم كلمة التزيين أو حتى التزيويق. و لكن شتان ما بين هذه المصطلحات الجميلة و النعوت الثقيلة التي شهدا عهد الاشتراكية في روسيا و سمع الكثير منها. و ليس بين المشتقات السوفييتية ما يشبه التشذيب و التهذيب. كل تلك المشتقات جاءت للدلالة على أمر ضروري و ملح في مرحلة تاريخية معينة، و عن سلب الانسان انسانيته و طغيان اللامبالاة على سلوكه. كان من أكثر الشعارات المزعجة المخطوفة فوق جميع مباني المحطات الكهربائية: الشيوعية هي السلطة السوفييتية مضافا اليها كهربية البلاد. و في عمان لا تصادف أية شعارات دعائية لا من هذا النوع ولا غيره. يجسد هدف التنمية في هذه البلاد لقلت: السلطنة هي

السلطة الوراثية مضافا اليها تجميل البلاد. فالشعب الذي يبني حياة جديدة على قاعدة أخلاقية عمرها ألف عام ويزيد لا يحتاج الى شحنات دعائية. التجميل في عمان يتجلى في كل شيء- في الترميم الواسع للآثار التاريخية الحصون والقلاع والمساجد والأسواق والبناء العصري القائم على التراث المعماري وحتى في الجوقات السيمفونية ومعارض الأزياء النسائية الوطنية. وفي كل ما يجري على هذه الأصعدة يبدو تأثير ذوق السلطان، ورؤاه الراقية لقيمة الجمال شكلا ومضمونا. وحافظت على صورة المدينة الاسلامية الشرقية التقليدية تمكننا من الحكم على مدى حرص السلطان على التقاليد. الاسلام في عمان هو الأساس الروحي الذي تقوم عليه العصرية والتجديد. أربعة آلاف مسجد شيد ورممت في ما مضى من سنوات حكم السلطان قابوس. وهم على القدر نفسه من التمسك بالتقاليد الوطنية. ولعلك لا تجد بلدا آخر في العالم العربي يحافظ الناس فيه لهذه الدرجة ولهذا الحد على الأعراف والعادات المعيشية المستمرة من الماضي العريق. ويحرص كل مسئول على أن يكون من مكونات الزي الذي يرتديه أثناء أدائه عمله خنجر كرمز لاستمرار التقاليد العمانية الأصيلة. في شخصية السلطان قابوس بن سعيد يقترن حب التقاليد والعادات الشعبية العمانية بالامام العميق بآداب السلوك والأخلاقيات في الأقطار الأخرى. وهو في كل مكان يشعر بالانشرح والانطلاق والحرية، ولجاذبيته السحرية وقدرته المدهشة على استمالة الآخرين بعد سياسي اضافة الى البعد الاجتماعي الشخصي الذي يميزه. واذا كانت زيارات رؤساء الدول الأجنبية حدثا جللا وأمرأ خارقا للعادة بالنسبة للأقطار المجاورة لعمان، فإن تردد نجوم السياسة العالمية عليها يعتبر شيئا عاديا تاماوا ولذلك فليس من قبيل المصادفة أن معظم زعماء العالم قد زاروا عمان خلال العقود الثلاثة الماضية. والشاه محمد رضا بهلوي، والرئيس الأمريكي بيل كلينتون. أما نواب الرئيس الأمريكي ومديرو أهم المنظمات الدولية والأمير شارلز والأميرة ديانا وغيرهم من كبار زوار مسقط فكان بوسعهم أن يكرروا قول الأمير السعودي خالد بن سلطان: أسعدني الحظ بالاجتماع الى السلطان قابوس، فكما هو شأنه من حيث الاطلاع الواسع للغاية على الأوضاع في عمان، فهذه الشخصية المبدعة اللامعة تضيف على كل ما تمارسه صفة من الابداع النافذ الخلاق. وعملياته الحربية الخاطفة التي تثير منتهى الاعجاب لجمعها بين الخفة والقدرة والدقة والجرأة، وكذلك خطواته ومرونته المدهشة التي تجسد فاعلية الحدس الدبلوماسي في السياسة الخارجية- كل ذلك يجسد طبيعة السلطان الثرية التواقة الى الفعل والعمل. يقال ان السلطان مستقل سيارته بين الفينة والفينة في جولاته تفقدية خاصة في أرجاء العاصمة وضواحيها فيزور المواقع التي يريد زيارتها، ويقوم بنفسه بتقويم عمل دوائر الخدمات المختصة بالتشجير وتنظيف الشوارع وما الى ذلك. ومن هذه الناحية يتقيد السلطان بأقدم تقاليد الحكام المسلمين الذين كانوا ينشدون المعلومات غير المزوقة عن أحوال الشعب وميوله وعن أمور الدولة والأوضاع فيها. هكذا فعل هارون الرشيد في سالف الزمان وهكذا فعل الخليفة الفاطمي أبو على الحاكم بأمر الله في مصر، وهكذا فعل العاهل الاردني الراحل الحسين بن طلال عندما كان يمضي وقتا طويلا وراء مقود سيارة أجرة في طريق عمان- الزرقاء، كما فعل السلطان قابوس. فهو على مدار الثلاثين عاما الماضية زار في أغلب الظن كل قرية من قرى عمان، أو شد على يده في الأقل. وتحضرني هنا أبيات أمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين في مدح القيصر بطرس الأكبر: أعين ممثلين عني، أما الآن. ويقول الشيء ذاته وزير ديوان البلاط السلطاني: توضع أمام صاحب الجلالة كميات هائلة من الوثائق. وما يميز جلالته هو اتخاذ القرار المتزن. ولكن اذا اقتضى الحال الاستعجال فتعطى الأولوية المطلوبة. وزير ديوان البلاط يعرف أكثر من غيره حجم الأعمال والقضايا التي يبت فيها السلطان. فالديوان هو الذي يضع جدول أعمال رئيس الدولة بعد استلام الطلبات من الوزارات والدول الأخرى. وبعد تعميم تلك المعلومات يعد الديوان برنامجا مستقبليا وآخر يوميا ويصادق عليهما السلطان. فالسلطان يقيم أكبر وزن للاتصالات الشخصية الانسانية، حتى انه يصحح الأخطاء اللغوية، ويرسم دوائر حول الكلمات غير المفهومة ويطلب توضيحها. وصاحب الجلالة يخرج من القصر يوميا تقريبا ليتحدث الى الناس. وتطرح الأسئلة هنا، وغالبا ما يتخذ صاحب الجلالة قرارات في شأن الشكاوى في الحال. واذا اشتكى شخص من مسئول فأن تحقيقا صارما لا بد أن يجري في موضوع الشكوى. وأسلوب السلطان هذا يجعل الموظفين اكثر نشاطا وفاعلية فيحاولون ألا يترهلوا جالسين في مكاتبهم، بل يسعون هم أيضا الى المزيد من التفاهم مع الناس ليطلعوا على احتياجات الناس ويردوا بدقة على أسئلة السلطان اذا فاجأهم بها. عندما تحدثت الى العضوتين في مجلس الدولة علمت أن الأرامل او النساء الرقيقات الحال يطلبن المعونة من السلطان أحيانا، فيصدر تعليماته في الحال باعانتهم ويقوم الديوان بدفع المعونات النقدية. يتصل السلطان هاتفيا بالوزراء وكبار ضباط الجيش والمستشارين، فهو لا يكتفي بالاطلاع على التي تقدم اليه المواد المختارة والغريبة. من الصعب وكذلك تحديد الأيام والساعات المخصصة للراحة والاستجمام. يقول وزير ديوان البلاط السلطاني أن وقت الراحة عند صاحب الجلالة ضيق للغاية، أنه في

اجازة، و لكن في الحقيقة أن عنده أيضا لقاءات و أعمالا متواصلة. و حتى عندما يسافر السلطان في رحلة غير رسمية الى أوروبا مرة في كل ثلاث أو أربع سنوات لا يتمكن من الابتعاد عن شؤون الدولة. و حتى عندما تعد الدوائر السلطانية المعنية تلك الزيارات لا يخلو الأمر من طلبات من السلطات هناك لتنظيم لقاءات مع جلالته. و لذا يقضي بعض الوقت بكل ارتياح في المرباط الرائعة التي شيدت ليس بعيدا عن قصره و يمارس ركوب الخيل و يقوم بجولات على ظهر الحصان. و هو مغرم أيضا بالبحر فيركب يخته المزود بكل وسائل الاتصال ليمخر به عباب البحر بين حين و آخر. و ليقضي في رحابه بعض الوقت و قد يحدث بسبب ذلك أن يبيت السلطان بعيدا عن الساحل أحيانا. و ثمة هواية أخرى للسلطان قابوس بن سعيد هي ولعه بالرماية باستخدام جميع أنواع البنادق. و هو من هذه الناحية يشبه أي عربي جبل على الفروسية و الجرأة و البسالة. و ربما كان من الصعوبة وصف هذا الجانب من طباعه بأنه مجرد هواية. فالموسيقى بالنسبة له لا تقل شأنًا عن السياسة في واقع الأمر. وريمسكي كورسكوف، و بالدرجة الأولى الموسيقى الكلاسيكية، و أصاب الخلل مسار التوارث، فلم يبق بين العازفين سوى عدد قليل من القادرين على صون موسيقانا الكلاسيكية كحدقة العين. و نحن في عمان نحاول الحفاظ على التراث الموسيقي. و أنا لا أستطيع أن أفضل اتجاها أو انتاجا على آخر. و يعجبنى الكثير في موسيقى الهند و أفريقيا. الثقافة الموسيقية العمانية تطورت بتأثيرات من ثقافات كثيرة: الهند و بلوشستان و أفريقيا. و موسيقانا متنوعة للغاية و معبرة الى أعماق الحدود. و من حسن الحظ أن عمان حافظت تماما على تقاليد الأداء الموسيقي، فلدينا جوقات و أوركسترات لجميع الأنواع الأساسية: الموسيقى السيمفونية و العسكرية و الجاز و غيرها. و أمل أن كل هذه الجهود لتطوير الموسيقى ستؤدي الى بلوغ هدف في النهوض بالمستوى الثقافي للشعب عموما و بمستوى التعليم الموسيقي خصوصا. و أتم بعضهم دورات تخصصية في مراكز موسيقية أوروبية ذات صيت عالمي خاصة في بريطانيا. كما أصدرت موسوعة الموسيقى التقليدية. و يمكننا أن نعتبر هذا المثل أحد المفاتيح الموصلة لفهم شخصية سلطان عمان. حقا فان معرفته أسمى منجزات الثقافة الانسانية و اطلاعه الواسع في ميدان الدين و التاريخ لا بد أن يخلقا حوله هالة نورانية فاضلة. ذلك أن الاتفاق على هذه الأغراض لا تمليه أبدا اعتبارات الربح و الخسارة. عندما تصادف السلطان هنية استجمام يلتقط العود و يعزف عليه ارتجالا. و في بعض الأحيان القليلة يعزف على الأرغن. و في حديث صحفي رد على سؤال عن القطعة الموسيقية التي لن يأسف اذا أخذها معه الى جزيرة خالية غير مأهولة قال السلطان انها الانشودة الرعوية السادسة لبتوهفنن. و هذا الاعتراف الموسيقي و أقوال السلطان الاخرى في شأن ذوقه الموسيقي تجعلنا نستنتج أننا أمام رجل متسق مع نفسه يعيش في وئام ذاته. الداخلية او الخارجية على حد السواء. و اذا شبهنا قائد الشعب بقائد الأوركسترا فان مهمته الفائقة الأولى هي الكشف التام على درجة استعداد كل فرد على الأداء و قدرته على التنفيذ. و هذا يتطلب فتح المجال واسعا أمام مبادرات الفنان و اجادة توجيه جهود كل فرد نحو تجسيد ابداعه الفني. و هو ترابط أشبه بالعلاقة في العائلة الكبيرة المتحابية المتوائمة. في مقابلة مع الصحفية البريطانية فيرونكا ماكلين قال السلطان قابوس انني أشعر بالمسؤولية تجاه شعبي كله. و الشعب يتحسس طبيعته الجماعية بأفضل صورة من خلال الحاكم. و يعمل لصالحه قبل أن يطلب الشعب منه ذلك. و الشباب يشعرون بالملل من الملوك الطاعنين. فهم يعتقدون أنهم يفهمون كل الأمور على نحو أفضل، و لذا فالنظام لا يمكن ان يبقى جامدا. و مع أن الجميع هم أبناء شعب واحد، فليس كل منهم يستحق هذا الاسم بالمعنى الروحي السامي للكلمة. و لعله كان يشعر بتأنيب الضمير للسنوات الست التي أمضاها ولده كالجين دون مبرر. و قد قرأنا الشهادة التالية في مذكرات نيل اينيس ناظر الخارجية السابق في عمان الذي التقى السلطان سعيد بن تيمور مرارا: تقبل الموقف بحكمة. و الحقيقة أن الأمر هو كذلك فعلا. فقد بعث سعيد بنت تيمور الى ابنه من لندن رسائل مفعمة بالركة و المودة. و الدليل على المصالحة التاريخية بين الأب و ابنه هو مسجد سعيد بن تيمور الرائع في حي الخوير بمسقط الذي شيد بأمر السلطان قابوس. أما علاقات قابوس بن سعيد بوالدته فكانت دوما تتميز بالدفء و الحنان. و في أحلك السنوات بالنسبة له شدت السيدة ميززون أزره وساعدته بالكلمة الرقيقة المشاركة الصادقة، كي يتحلى بالقوة و الايمان بالمستقبل. لقد ظل عندما تسلم مقاليد الحكم يستمع الى نصائحها و يقدر غاية التقدير ذهنها الثاقب و وصايا العملية. و حين اختطفتها يد المنون في 12 اغسطس 1992 م كانت تلك فاجعة أليمة و خسارة عظيمة بالنسبة للسلطان و شعبه. و على تلك الشواهد الآيات الكريمة: (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي) سورة الفجر. و ينزل منها رجل بلحية قصيرة بيضاء تعرفها السلطنة بأسرها. كي يقف أمام قبرها خاشعا لا يعكر صفو حوارهِ الصامت معها. هي التي رحلت الى الأبد – سوى همس الأمواج. و تتحدث اليه و يتحدث اليها، قبيل الفجر تسمع شقشقة آلاف الطيور على هامات النخيل في صلالة. ثم تنزع الشمس على الحد الفاصل بين اليابسة و البحر. و ترسم أشعتها على صفحة الماء هياكل الكثير من قوارب الصيد. و هنا و هناك

تفور صفحة الماء فجأة، فآلاف الأسماك الصغيرة تقفز الى أعلى طلبا للنجاة من سمكة كاسرة كبرى، و ببطء شديد يزيح الجزر خط الساحل و يبعده تاركا على الرمال مختلف المأكولات للقطط و الطيور. و ليس من قبيل الصدفة أن يتحلى أهالي السواحل في أية بقعة من بقاع المعمورة بالخلق المتزن الهادئ و الاعتماد على النفس و الرصانة و التسامح. كان عرب عمان منفتحين على العالم من قديم الزمان. قوافلهم نقلت هبات الأرض الثمينة من مر و لبان آلاف الأميال في الصحارى و الجبال. و ألقت سفنهم مراسيها عند الشواطئ النائية التي تقطنها أجناس أخرى و تسودها حضارات أخرى. مثلما نفعل نحن الآن.